CC BY NC

jcms
مجلة الدراسات المقاصدية المعاصرة
JOURNAL OF CONTEMPORARY MAQASID STUDIES
journal.maqasid.org
Vol. 2, No. 1, 2023, p. vii-xii
journal.maqasid.org
ISSN 2831-5049

بين التفسير والتثوير:
تساؤلات منهجية

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ثوروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين"

بسم الله الذي أنزل القرآن، فجعله حجة نيرة المكنون، وصلى الله وسلم على من جعله البيان لقوم يعقلون، فأنار به سبيل التفسير، وفتح لأمته باب التفكير والتثوير، مفسرا آيات الأنفس والآفاق، مظهرا لتفاصيلها بالاستحقاق، فأقام للحق حجته، وأنار للصراط محجته، وجعل تدبر القرآن بابا لإدراك مناه، وحذرنا ممن اتخذ إلهه هواه، ونعوذ بالله من علم لا ينفع يتسفل بنا في مهاوي الردى والاشتباه.

تعتبر الثقافة الإسلامية ثقافة "نص"، لارتكازها على القرآن الكريم في تأسيس أفكارها وتصوراتها، إلا أن هذا "النص" محتاج إلى البيان والتفسير منذ فجر الإسلام، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يعتبر البيان الأمثل، واجه العرب مجموعة من الإشكالات في تفسير القرآن رغم أصالة قريحتهم اللغوية.

في هذا السياق ظهرت مجموعة من الفنون والعلوم التي تجيب عن مجموعة من الأسئلة المرتبطة بالخطاب القرآني، على رأسها سؤال البيان الذي يعمل فن التفسير على الجواب عليه، وتختلف طبيعة التفسير بالنظر إلى "تكوين" المفسر و"خلفيته المعرفية" و"تحدياته السياقية"، فوجد عندنا عبر التاريخ "التفسير الأثري" و"التفسير العقلي" و"التفسير الفقهي" و"التفسير الأصولي" و"التفسير الإشاري" و"التفسير الموضوعي" و"التفسير اللغوي" و"التفسير العلمي" وغيرها من أضرب التفسير التي تتأثر بتكوين المفسر من جهة، وبتحديات السياق وإكراهاته وأسئلته.

يدل هذا الزخم على ثراء الدرس التفسيري وعدم جموده، ورغبة العلماء في استكناه مكنونات الآي، وتدبر معانيها، ومحاولة ربطها بسياق المفسر في كل زمان ومكان، والكشف عن أنوار القرآن الكريم، وهذا مقتضى عملية التدبر والتفسير، أوليس معنى "الفسر" كشف المغطى؟ غير أن هذا الكشف يحتاج إلى وسائل وآليات تشكل بمجموعها عدة منهجية ثقيلة، إذ كلما كان المغطى عظيما كلما لزم الاجتهاد في ابتكار الوسائل والآليات التي تظهر هذه العظمة وتكشفها وتجليها، بيد أننا نلحظ أن كثيرا

من الوسائل المستعملة في تفسير القرآن لا تحقق مقصد "البيان"، حيث انقلب الفسر إلى تغطية، والكشف إلى خفاء.

ومن هنا كان من اللازم في عملية التوسل المنهجي التأطر بمقاصد تفسير الخطاب القرآني بما يتناسب وخصوصية هذا الخطاب من حيث مصدرُه ولغتُه ونظمُه ومقاصدُه، ليتم تكييف المنهج بالشكل الذي يحقق مقاصد الفسر والكشف والبيان، والألزم من ذلك هو ابتكار المنهج المعياري الذي ينظر في تحقق قصد البيان من عدمه.

وعملية الكشف ليست آلية وإنما هي منهجية دقيقة وفائقة تحتاج إلى تقليب وتثوير، أو لم يأت في الأثر المنسوب للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: "من أراد خير الأولين والآخرين فليثوّر القرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين"، وفي لفظ آخر: "علم الأولين والآخرين" [أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير"] وفي رواية أخرى: "من أراد العلم فليثوّر القرآن"، وأحد المعاني الكبرى للتثوير التقليب مصداقا للآية الكريمة {وأثاروا الأرض} (الروم:٩) أي قلبوها للزراعة والحرث، والأرض لا تصلح للزراعة إلا بعد تقليبها، لذلك نجد الفلاح لا يسرح في زراعة الأرض إلا بعد تهيئتها، وذلك بتقليبها بداية ثم حرثها. ومن هنا كان علماؤنا يفسرون التثوير بالمفاتشة، إذ التثوير لا يكتفي ببيان ظاهر القول، بل يغوص في معاني القرآن ويقلبها على أوجهها المتعددة، ومن هنا نقل الزركشي عن بعض العلماء أن التثوير: "لَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَفْسِيرِ الظَّاهِرِ" [البرهان: ١٥٤/٢].

وإذا تأملنا فعل التثوير في الروايات السابقة، سنلحظ أنه يرتبط بمصطلحين أساسيين وهما: العلم أو الخير من جهة، والأولين والآخرين من جهة أخرى، وذلك في إشارة إلى اكتناز القرآن للخير كله، دقه وجله، ومن ذلك أصول العلم والمعرفة، مما يجعل القرآن الكريم المصدر الأول للمعرفة والعلم في المنظومة الإسلامية، ولا نقصد بذلك أن القرآن الكريم حوى تفاصيل المعارف والعلوم، فذلك ما سقطت فيه مجموعة من المناهج المعاصرة وفق ما يسمى ب "الإعجاز العلمي"، مسقطة بذلك معارف العصر على النص، فليس هذا المعنى المقصود في هذا المقام، بل القصد وجود إشارات ودلالات عليها، تحتاج إلى مزاوجتها بما استجد من العلوم في كل سياق زماني ومكاني للكشف عنها، ومن هنا فإن القرآن ليس بديلا عن العلم، وإنما هو مصدر تحريض دائم على العلم والمعرفة، يدعو إليهما بشتى الطرق المباشرة وغير

Copyright © 2023 JCMS

المباشرة، مما جعل القرآن كتابا مفتوحا على كل العلوم التي تتفتق عنها العقول والأفئدة، وتجود بها العصور والأزمنة.

نرجع إلى موضوعنا الأساس وهو فعل التفسير الذي يروم إيضاح مغلقات القرآن وكشف مكنوناته التي لا تنتهي، إذ لو كانت منتهية لوجد عندنا عدد قليل من التفاسير التي تجيب عن أسئلة الظاهر، لكن لما كان مكنون النص خفيا ومتجددا، احتجنا إلى إبداع وسائل للكشف عنها، فكان التفسير بذلك آلية للكشف والبيان، والتثوير وسيلة المفاتشة والتقليب والبلاغ، ومن هنا نفهم تعدد أضرب التفسير واختلاف مناهج المفسرين بما تجود به العقول والعلوم في الأزمنة المتقدمة. غير أن هذا الزخم الغني يثير فيّ سؤالا مزدوجا من زاويتين؛

الزاوية الأولى ترتبط بالمنهج، إذ نلحظ أن المناهج التفسيرية توقفت في مرحلة معينة، بحيث تقررت عندنا نفس المناهج التي تعمل على تحقيق وظيفة "البيان"، وهنا نتساءل إن لم يكن من الممكن اليوم إضافة مناهج تفسيرية جديدة، بالنظر إلى فتوحات العصر، تتأطر بعدة التفسير، وتحقق قصد "التثوير"؟

الزاوية الثانية ترتبط بأصول التفسير والتثوير، فمعلوم أن القرآن كتاب مفتوح، وأنواره ليست حصرا على فئة محددة، إلا أن الفسر على مكنوناته يحتاج إلى عدة منهجية قوية ومتجددة للغوص في عمق المعنى والعمل على تثويره، وفعل التثوير مقصدي بامتياز، إذ التقليب والمفاتشة والانتشار يستلزم العلم بمقاصد الخطاب الكبرى الكلية والجزئية، العامة والخاصة، فالعمل على نشر الأنوار دون معرفة مقصدية مزدوجة؛ العلم بمقاصد الخطاب، والوعي بمقاصد السياق، من شأنه أن يحقق عكس المقاصد المرجوة، فيكون ضرره أكثر من نفعه.

لذلك، أحسب، والله أعلم، أن الدرس التفسيري لم يصل بعد إلى تشكيل صورة متكاملة عن "أصول التفسير" باعتبارها الإطار المنهجي الذي ينظم عمليتي التفسير والتثوير، ولا يتحقق ذلك إلا بتطبيق المنهج التكاملي بين التفسير وعلوم الإسلام والحكمة المنهجية والمعرفية المتجددة.

ومن هنا يأتي العدد الثالث لمجلة دراسات مقاصدية ليحاول وضع ملامح نظرية بنائية لأصول التفسير في العصر الحديث، والتي تعين على إبراز مكنونات الخطاب القرآني وتوسيع دلالاته وتثويرها

Copyright © 2023 JCMS

لوضع أنساق مفتوحة للمعاني القرآنية بغية الارتقاء بها نحو المقاصد العليا للوحي الخاتم بنهج تكاملي بين المناهج والمعارف المتعددة كما وكيفا.

وفي هذا السياق، يطيب لي أن أشكر كل المسهمين معنا في هذا العدد من الأساتذة الكرام الذين يتشاركون معنا نفس الهم والرسالة، بدءا بالدكتورة الجليلة فريدة زمرد المعروفة بكتاباتها القيمة في التفسير وعلوم القرآن، حيث كتبت دراسة متميزة خصيصا للمجلة موسومة ب: "التفسير المقاصدي وأصوله: بحث في المفهوم والتطبيقات بين نظرات المتقدمين"، حاولت فيها التأصيل للتفسير المقاصدي كاتجاه له أصوله وقواعده التي يشترك فيها مع غيره من أضرب التفسير المعتبر لدى أعلام الأمة.

كما شارك في هذا العدد الدكتور فريد شكري، وهو الأستاذ المتخصص في قضايا المقاصد، بمقالة عنونها ب: "التفسير المقاصدي للقرآن الكريم بين التفعيل والتعطيل"، حيث أبدع بعض التقسيمات المنهجية المهمة في هذا الصدد؛ فمن حيث المنطلق؛ هناك التفسير المقاصدي الاهتدائي والتفسير المقاصدي الانتهائي. ومن حيث المآل والغاية هناك التفسير المقاصدي الإغنائي التكميلي التفعيلي والتفسير المقاصدي الإلغائي التبديلي التعطيلي، وقد فصل الأستاذ في هذه الأقسام ضاربا بعض الأمثلة والقواعد المناسبة لكل قسم.

كما شارك معنا الأستاذ الكريم د. عزام أبو رياش بدراسة تدبرية باللغة الإنجليزية حاول فيها وضع الإطار المقاصدي لتحليل الاستدامة البيئية في القرآن الكريم، حيث انطلق من مجموعة من المفاهيم الأساسية في القرآن الكريم المرتبطة بالبيئة، نحو المفاهيم المرتبطة بإفساد الأرض وإصلاحها، ومفاهيم الاستخلاف والاستعمار، ومفاهيم الوراثة والتسخير، ومفهوم "أمم أمثالكم"، والمقصود بها بقية المخلوقات التي تشارك الإنسان الكوكب والموارد، وهذه الدراسة هي محاولة تدبرية وتفسيرية في القرآن الكريم حاول فيها الأستاذ توظيف المنهجية المقاصدية لتحليل الإشكالات البيئية.

ولما كان موضوع هذا العدد لا ينفصل عن التأصيل والتقعيد، وجب البحث عن بعض الأصول المنهجية المتقدمة خارج المتن التفسيري، وفي هذا السياق يسهم معنا في هذا العدد الأستاذ الكريم د.إدريس روبية بدراسته القيمة: "النظر المقاصدي وأثره في التأصيل لعلم أصول التفسير عند الإمام الشافعي"، والتي يروم فيها مؤلفها إثبات أسبقية الإمام الشافعي إلى وضع أسس فن أصول التفسير مدللا على هذه المسألة بمجموعة من المباحث القيمة في كتاب الرسالة.

Copyright © 2023 JCMS

أما في باب المراجعات، فقد أتحفنا الدكتور الجليل إسماعيل الحسني، الأستاذ البحاثة في المقاصد والفكر الإسلامي، بمراجعة قيمة للكتاب الأخير للدكتور الفيلسوف طه عبد الرحمن: "التأسيس الائتماني لعلم المقاصد"، ونظرا لطولها ونفاستها، ارتأينا تقسيمها إلى قسمين، نشرنا في هذا العدد القسم الأول، على أن ننشر القسم الآخر في العدد القادم إن شاء الله. وتكمن فائدة هذا الكتاب في أنه يأتي ضمن مشروع الدكتور طه عبد الرحمن الذي يروم تأسيس فلسفة ائتمانية مبنية على كليات القرآن الكريم ومقاصده العليا، ومن هنا حاول الأستاذ طه في كتابه مناقشة الأطروحات المقاصدية المعاصرة على ضوء هذه الفلسفة الائتمانية القرآنية، وفق نهج منطقي فلسفي نحسب أنه غير مسبوق.

وفي قسم ترجمات، فقد أحسن الدكتور مولود محادي، نائب رئيسة التحرير والباحث الواعد في الفكر المقاصدي، ترجمة مقال نفيس للدكتور محمد عبد الحليم حول دور السياق في تفسير القرآن الكريم وترجمته، حيث بين د. محمد عبد الحليم ثمار غياب السياق عند كثير من تراجمة القرآن الكريم مما شوش على بيان المعنى وأحيانا حوَّر بوصلة المعنى نحو وجهة عكسية تماما، ورغم صعوبة المقال الذي يتحرك في مساحات مختلفة من العلوم والمعارف، إلا أن الدكتور مولود استطاع تقريب المعنى للقارئ العربي بأسلوب علمي سلس.

وفي آخر أقسام العدد، محاورات، أجرى كذلك الدكتور مولود محادي حوارا لطيفا ومعمقا مع الدكتور جاسر عودة، المعروف بكتاباته القيمة والمتعددة في المقاصد وقضايا الفكر الإسلامي، حيث رمنا الاستفادة من التجربة البحثية والعملية للدكتور جاسر، ومدارسة مجموعة من الإشكالات التي تنتمي للدرس المقاصدي والتفسيري على حد سواء، فكانت أجوبته مزيجا من العلم والخبرة، والمعرفة والحكمة التي تتجلى في ثنايا أجوبته وردوده.

ولا يسعني في الختام إلا أن أشكر مجموعة من الأساتذة الذين كان لهم كبير الفضل في إخراج هذا العدد، ويأتي على رأسهم فضيلة الدكتور جاسر عودة، فما كان للأرضية التصورية لهذا العدد أن تكتمل وتتضح دون مجموعة من النقاشات والمباحثات والمفاتشات التي تمت معه على مراحل متفرقة، كما أشكر الدكتور زيد البرزنجي مدير التحرير الذي سهر على هذا العدد منذ بدء فكرته وحتى إخراجه بشكل يومي ودائم، بدءا بتوجيه عمل الفريق وتنظيم الاجتماعات الأسبوعية ونصف الشهرية، والسهر

Copyright © 2023 JCMS

على إخراج العدد في وقته بالشكل الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، ضاربا بذلك مثالا في الإخلاص والصدق والتفاني.

كما أشكر الدكتور مولود محادي، نائب رئيس التحرير على تفانيه وصبره وسعة صدره، فرغم كثرة الأعمال التقنية المنوطة به، من مراسلات مع المؤلفين والمحكمين وأعضاء هيئة التحرير، إلا أنه كان مشاركا في التصور العلمي للعدد، كما قدم مشاركة وازنة في قسم ترجمات ومحاورات، التي أبانت عن وعي مقاصدي متقدم.

ويطيب لي كذلك أن أشكر، د. آدي الرحمن، نائب مدير التحرير على تفانيه وعمله ضمن جنود الخفاء، وكذلك د. ياسر الطرشاني، نائب مدير التحرير، على عمله وتشارك خبرته مع الفريق، الأستاذ أحمد شكران والأستاذ أولياء رحمت، على جهودهم القيمة لإخراج العدد في أبهى حلة، وجميل الثناء كذلك للسادة الأساتذة الذين حكموا مقالات هذا العدد، وفي الختام أجدد شكري لكل الأساتذة الذين شاركوا معنا في هذا العدد، ونعتذر للذين لم تقبل مقالاتهم راجين منهم تجديد الإسهام والمشاركة في الأعداد القادمة، فالله أسأل أن يجزي الجميع خير الجزاء، ويجعلنا من الناشرين للعلم النافع بين الأنام.

وعلى الله قصد السبيل.

جميلة تِلوت
رئيسة التحرير

Copyright © 2023 JCMS